رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

الآداب ٧
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
بيروت
ص.ب. ٤١٢٣ ــ تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

العدد الثالث
اذار (مارس) ١٩٥٨
السنة السادسة

No. 3 Mars. 1958
6ème année

الدمع العذب

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

سألتني ، حين رأتني ارتدي ثيابي :

ــ كنت اظن انك لن تخرج .. ان الراديو يكاد يبدأ اذاعة الاحتفال .

فأجبتها باقتضاب :

ــ سأستمع اليه من النادي .

ــ ولماذا النادي ؟ ابق الى قربي . انني احب أن نستمع اليه معا .

فنظرت اليها بحنان ، ودنوت منها الامس خدها بشفتي وأنا اتمتم :

ــ اود ان اراهم ...

فلم يبد في عينيها الاقتناع ، فأضفت قائلا :

ــ احب ان اكون بينهم في هذه اللحظات ، ولن اتأخر كثيرا ... انتظريني .

وحين فتحت الباب ، وهممت باغلاقه خلفي ، سمعتها تناديني قائلة :

ــ لحظة ... لحظة ... الا تريد ان ترى « رورو » ؟

وكانت بعد ثوان امام الباب والطفلة بين ذراعيها تنظر الي بعينين فيهما تلك الدهشة الابدية التي تنبعث منهما منذ ان ولدت . ثم ابتسمت « رائدة » . فأقبلت عليها اقبلها في وجنتها وأنا اتساءل « متى تفهم ما اقول ؟» ثم قلت لها :

ــ سأعود بعد قليل يا بابا ...

وانفتلت عنها متجها الى المصعد . وللمرة الاولى سمعتها تنفجر خلفي بالبكاء ، فاذا بي اعود اليها ملهوفا آخذها بين ذراعي واغمر وجهي في عنقها الطري البض . وأسمع زوجتي تقول :

ــ لقد بدأت تفهم ...

وعدت فدخلت البيت ، وجعلت اتحايل عليها حتى تمكنت من الهائها بلعبة صغيرة أخذت تحدثها باللغة التي تفهمها. وسمعت في تلك اللحظة صوت المذيع يعلن ان الموكب قد بدأ بالمسير ، فأسرعت بالخروج وفي نيتي ان ابلغ النادي في دقائق .

وسمعت وأنا اجتاز الطريق الرئيسي في حينا ، اصوات الموكب تمر سياراته ودراجاته الصاخبة بين الوف من الناس الهاتفين المصفقين .. لقد كانت اجهزة الراديو في حينا مطلقة اصواتها الى اقصى ما تبلغ هذه الاصوات من الارتفاع والهدير . لكأن سكان الحي قد اتفقوا على ذلك . بيد انهم لم يكونوا على مقربة من اجهزتهم ، لقد تركوها في الداخل تصيح ، وخرجوا الى عتبات الابواب ، في البيوت والحوانيت ينظرون ، كأنهم ينتظرون بغموض ان يمر الموكب بعد قليل بحيهم فينضمون اليه ويهتفون ويصفقون .

وحين بلغت النادي ، رأيت سبعة او ثمانية منهم متحلقين حول الراديو . وحييتهم بانحناءة من رأسي ، ثم جلست الى جانب احمد ، من غير ان انبس بكلمة . وحين اجلت فيهم نظري لم أر بينهم عزت . اما حسان ، فكان حانيا ذراعه فوق الراديو يرتشف كل كلمة يطلقها المذيع. وكانت عيناه الزرقاوان تطوفان بالجلوس بين الفينة والفينة وفيهما تساؤل ، وتطيلان الوقوف على وجه جميل الذي كان غارقا في كرسيه بجسمه السمين ، مطرقا الى الارض بنظره الطفولي . واما نزار فكان مختفيا وراء نظارتيه ، وطيف ابتسامة على شفتيه . وهمَّ مختار يقول : « يا اخوان ... اليوم ... » ولكنه آثر ان يؤجل تعليقه حين ارتفع صوت المذيع يعلن وصول الموكب الى دار الرئاسة . وفتح حسان

علبة « باستيل » كانت في جيبه وقدم منها للجميع . فلم يأخذ مختار . بينما اخذ احمد حبتين اثنتين . وفي تلك اللحظة انبعث صوت المذيع هادرا ، فراودته بحة . فالتفت جميل الى حسان يقول له وهو يشير الى الراديو : « قدم له حبة ! » فانفجر سامي ضاحكا ، واكتفى نزار بأن يطلق طيف ابتسامته الرابض على شفتيه . اما انا . فاعجبتني النكتة ، ولكني كتمت الضحكة في صدري . وعاد مختار يقول : « يا اخوان ... الحقيقة » فانبعث من يميني صوت يدعوه الى السكوت . وعرفت فيه صوت عبد الحفيظ الذي كان قد نهض وتوجه الى الراديو . حتى اذا حاذاه ، التفت الينا وقال « والله العظيم ... انه يوم ... » فهب مختار يسير اليه بيده ويصفر بفمه : « هسسسسس » كأنما لينتقم منه .

وكنت قد وضعت رأسي بين كفي حين اعلن مولد الجمهورية العربية المتحدة .

ومن خلال غشاوة رانت على عيني ، رأيت الباب يفتح ويدخل عزت ، متابطا كتبه . وحين سمع مرة اخرى « الجمهورية العربية المتحدة » انهار على مقعد قريب من البار . وأخذ البكاء يهز جسمه حتى سقطت كتبه من يده ، فاستقر اثنان على ركبتيه ، وثلاثة على الارض . وعند ذاك اقترب عبد الحفيظ ، وانحنى بقامته المديدة فالتقط الكتب على مهل ، ورفع ذراعه فألقاها على كتف عزت . وحين اجلت بصري فيهم ، كانت في عيونهم جميعا دموع .

وشعرت بقطرة تحرق خدي ، وتظل تسيل حتى تبلغ شفتي العليا . وتذوقتها بلساني وتمصمصتها دمعا عذبا . لقد حلا الدمع المر . منذ عشر سنوات مر على لساني كالحنظل . ولقد احسست له بمذاق مرير لم يذهب به الا مذاق النبيذ الذي استحضره حمدي ، وأنشأ يصب لي ولنفسه منه الكؤوس . وقد شربت مع حمدي تلك الليلة كؤوسا كثيرة ، فثملنا وعربدنا . ثم رأيت حمدي يتقيأ على بساط الغرفة ، فشعرت بأني لم اكن انا نفسي الا نقطة رشاش من هذا القيء الكثير . منذ عشر سنوات ، في باريس . اما هذا الدمع الان ..

فؤاد الشايب

في كتابه

تاريخ جرح

مجموعة قصص شرقية وغربية

دار المكشوف ، بيروت

ورأيت عزت يمسح عينيه . ونزع نزار نظارتيه عن عينيه . وأغمضت انا عيني . فانبعثت خلف جفني اطيافهم جميعا وقد انتصبوا واقفين وبدأوا يتكلمون . الحقيقة يا اخوان .. انه يوم ... انا لا اصدق . من كان يظن . كنا بحاجة الى مؤمن هذا الايمان العظيم بالقضية . والى بطل يؤمن بالتضحية والفداء . ان الرعشة لا تزال في اطرافي . يا احمد : انك لا تتصور اية خطوة عظيمة هذه التي خطوناها . حسبها ان ترد لنا ايماننا بأنفسنا . لقد زالت عقدة الذل . والاحساس بالغربة في ارض الوطن . تدفق النهر مكتسحا صخور العبودية . اضطربت الموجة الجامدة بالحياة . وستقتلع الاعشاب الطفيلية . وستزيل الحجارة التي تعرقل تدفقها . الم اقل لك يا سامي انهم سيطلقون عليها اسم الجمهورية العربية المتحدة . لا ، قلت : الدولة العربية المتحدة . هناك فرق . كنت اقول ان قوميتنا ستظل شعارات ما لم تمتزج بالدم من جديد . ما لم تعمّد . ولقد عُمدت في بور سعيد ووهران . وهي ما زالت بحاجة الى دم . انها ما فتئت عطشى ، ولا بد ان تروى . يقولون: عاطفة ! سخفاء هم ! متى كانت الاعمال العظيمة تتحقق اذا لم ترفدها العاطفة ، الحماس ، الهوس ، الجنون . والايمان. ليس هو اقتناعا فحسب . انه عاطفة هوجاء . ان المؤمنين ليسوا فلاسفة . انهم ادباء ، شعراء . انهم هم الذين يخلقون الحقيقة من جديد . ينكرون الواقع ابدا ليصنعوا واقعا اجمل وأروع ، وما يفتأون يعملون حتى يؤمن الناس بهذا الواقع الخيالي ، وآنذاك يبدأ هذا الواقع بالتحقق . والله العظيم يا اخوان ، حلمت يوم امس ... اما تزال تحلم يا مختار ؟ لقد آن لك ان تستيقظ ، انظر . اسمع : انها الحقيقية بين يديك . في ضميرك . انها هناك ، في دمشق في القاهرة . وعما قريب في عمان وبغداد والخرطوم وبيروت .. في كل مكان . ان الشعب الان يريد . لقد ظلت امانيه مكبوتة محرومة منذ عشرات العقود . اما الان . فانه يترك لاحلامه التي كانت تداعب خياله بغموض ان تتجسد واقعا حيا نابضا لا يكاد يصدق ، واقعا رائعا يوشك ان يكون مروعا ، واقعا معجزة . لانه يا عزت الواقع الامنية. الواقع المستقبل ، الواقع المصير . كانوا يقولون لنا يا جميل. كونوا واقعيين ... ولكن ما عسى ان ينتهي اليه مصيرنا لو كنا واقعيين كما يحبون ؟ اما كنا نظل طويلا في ظل الاستعمار المثلث ؟ اما كنا نحرم الامل في ان نتحد يوما ؟ أما كنا نحرم الامل في ان نسترد الارض المغصوبة في فلسطين ، ونحرم الامل في ان ننصر قوميتنا في الجزائر ، ونحرم الامل في ان نستعيد مكاننا تحت الشمس ؟ اما كنا نصبح عبيد الواقع لو كنا مثلهم واقعيين ؟ وكيف كان لنا ان نزيح الملك الطاغية ، ونؤمم القنال ، ونقاوم في بورسعيد؟ كيف كان لشكري ، هذا الذي يعلن الان مولد الطفل الجميل. ان يقدم على التضحية ... كانت جباهنا يا شباب ممرغة في وحول المذلة ، وكانت عقدة الدونية واليأس تتعقد في

نفوسنا يوما بعد يوم . ولكم اصيبت امتنا في القرن الاخير بالتمزق النفسي والخجل . غير ان ذلك الذي تطاول عملاقا هناك نهض ليشعرنا بأن قدرنا ما زال عظيما ، وان هذا الذل الذي يلطخ جبيننا لا بد ان يمحى . لقد خطت القدم الخطوة الاولى ، الخطوة الجبارة ، وهي لن تتعثر بعد ابدا . . ما كان هذا قصدي يا عزت . . بل . . . اسمعوا يا اخوان . انه يتكلم . فليتكلم ما حلا له . فليتكلموا جميعا . فليس يهمنا كثيرا بعد ان نستمع اليهم ، لانهم لن يقولوا الا ما نقوله نحن . . وما دام العمل قد تم ، فليست قيمة الكلام بعد كبيرة . بوسع الكلمة الان ان تنام ، هذه الكلمة التي كانت اخطر افيون يخدروننا به . وانت ما رأيك يا نزار ؟ دعني اجيب عنه : فهو سيبدأ بالقاء المواعظ والدروس . ليس هذا وقت المواعظ والدروس ، اسكتوا قليلا يا اخوان . . اسمعوا . .

ورفعت رأسي على صوت عزت يدعوهم للصمت . فرأيتهم جميعهم مطرقين لا ينبسون . واخذني العجب . كيف صمتوا كلهم دفعة واحدة بعد ان قالوا هذا الكلام الكثير ؟ ثم شككت بسمعي : لعلهم كانوا صامتين منذ ساعة ، ولم ينغم احدهم بحرف ، وانما يخيل اليك انت . .

ورأيت عزت ينهض ، فيضع كتبه على مقعده ويقول : « تهانينا ايها الاخوان » ثم يقبل على نزار فيعانقه . وما يلبث احمد وجميل ومختار وعبد الحفيظ وانيس ورفيق وحسن ان يتصافحوا ويتعانقوا . وكنت كلما عانقت احدهم شعرت وانا اقبله برطوبة الدمع على وجنتي وشفتي . وكنت أتمصص ذلك الدمع العذب .

وفتح الباب فجأة بعد لحظات ، ودخل سامي حاملا العلم العربي الكبير الذي كان معلقا في صدر القاعة الكبرى . وما كاد يتوسط الحجرة حتى احطنا بالعلم ، ثم ركعنا جميعا ، وتجاذبنا اطرافه نقبلها .

وبعد دقائق ، كنا مجمعين على تفاصيل مهرجان الوحدة العربية الذي اعتزمنا اقامته .

وحين عدت اعبر الطريق الرئيسي في حينا ، كانت اجهزة الراديو ما تزال مطلقة اصواتها الى اقصى ما تبلغ هذه الاصوات من الارتفاع والهدير . ورأيت سكان الحي ما زالوا واقفين على عتبات الابواب ، في البيوت والحوانيت ، كانما قوي ايمانهم بأن الموكب سيمر بعد حين ، فينضمون اليه ويهتفون ويصفقون .

وفتحت الباب على مهل متوقعا ان اجد زوجتي قد اوت الى فراشها بعد ان قاربت الساعة العاشرة . ولكني وجدتها جالسة الى الراديو الذي لا بد ان يكون صوت هديره قد حجب صوت دخولي . والواقع انها فوجئت بي على مقربة منها وأصابها بعض الذعر ، فنهضت من مقعدها وأحاطت عنقي بذراعيها وهي تقول « لقد ارعبتني » ! وظل رأسها على كتفي لحظات ، ثم أحسست بجسمها تهزه الرعشات . وضممتها الى صدري ومشيت بها خطوات حتى جلسنا على الاريكة . وقلت لها انني لم ارها من قبل على مثل هذا الجمال ، ولم احبها كما احببتها في تلك اللحظات ، ولم اكن يوما سعيدا بها كما كنت ذلك اليوم . ولم اشكر لها انها كانت الى جانبي في فترات القلق والتشاؤم والتمزق تحاول ابدا ان تبدد غيوم القلق والتشاؤم والتمزق . ولم أقل لها انها في حياتي رمز الامل .

ـ لقد بدأ املك يتحقق يا عزيزي .

لمثل هذا خاصة احبك . انك من رهافة الحس بحيث تشاركينني ابدا اجوائي وهمومي ، من غير ان احدثك عن اجوائي وهمومي .

ـ وهذا الشعب الحبيب الطيب . . . لقد آن له ان ينفجر بمثل هذه الفرحة التي كانوا يخنقونها دائما في صدره . انني افهم ان يسكر هذا السكر ويأخذه ذلك الهوس والجنون . . لقد التقى بقدره من جديد .

ثم اضافت زوجتي وانا اتأمل عينيها :

ـ ولكن امامنا طريقا طويلة بعد . . الا تعتقد ذلك ؟

فأجبتها وأنا الامس وجنتها بشفتي :

ـ بلى يا عزيزتي . . . غير اننا بدأنا المسير ، ونحن الان نعرف الطريق . . .

وكان العملاق في تلك اللحظة قد بدأ يتكلم ، هناك في العاصمة الكبرى . وانفجرت الاصوات تهتف وتنادي وتحيي . ورأيت زوجتي ترهف سمعها باتجاه غرفة النوم ، ثم تنهض وهي تقول :

ـ لقد افاقت رورو . . . انها تبكي . . .

وعادت بها بعد لحظات ، وهي ما تفتأ تبكي ، ولكنها ما كادت تراني حتى كفت عن البكاء ، ثم ابتسمت ، والدمعة ما تزال في عينيها ، واتجه نظرها الى جهاز الراديو الصاخب ، فظلت لحظة تستمع ثم رفعت يدها الصغيرة واخذت تلوح بها وهي تصرخ صرخات صغيرة ، كأنها الهتافات .

وشدتها امها الى صدرها وأخذت تقبلها في خدها وجبينها وشعرها ، ثم التفتت الي تسألني :

ـ ألم أقل لك انها بدأت تفهم ؟

سهيل ادريس

صدر حديثا :

- شرح ديوان عامر بن الطفيل
- شرح ديوان عبيد بن الابرص
- شرح المعلقات السبع للزوزني

طبعة انيقة ومحققة

الناشر

دار بيروت و دار صادر